" وتغيير النّفس إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شأن علم الكلام، بل هو من شأن منهاج التصوف، أو بعبارة أدق، هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد، ويمكن أن نسميه (تجديد الصلة بالله"). مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 54.

" إذا لم يوجد الأساس الأخلاقي، فإن الحضارة تنهار، حتى عندما تكون أكثر القوى المبدعة والفكرية تقوم بدورها في اتجاهات أخرى... إن السَّيطرة الأخلاقية على نزعات البشر أهم بكثير من السيطرة على الطّبيعة" شفيتزر فلسفة الحضارة .

مفتتح البحث :

إن مُرادنا في هذه الورقة هو تسليط الضوء على النواة المركزية التي راهن عليها «مالك بن نبي » من أجل استيفاء الشروط لدخول دورة حضارية جديدة، هذه النَّواة متعددة التّسمية في برنامجه النقدي والتأسيسي، فيسميها دافع الإيمان والقوة الروحية تارة وانتفاضة القلب والطَّاقة الأخلاقية تارة أخرى، والأدهش أنه اقترح لها علما يُعنى بهذا الفضاء الموصول بتغيير ما بالنفوس، وهو برأيه علم لم يوضع له اسم بعد، فاقترح له تسمية علم " تجديد الصّلة بالله"، وهو ليس من اختصاص جِدالات المُتكلّمة الذين ينطقون أفكارا مجرّدة؛ وإنَّما من اختصاص منهاج التصوّف، لا على طريقة الدروشة والشعوذة، وإنما على طريقة إيقاظ الدّافع الداخلي باعتباره رهانا وأداة نراهن بها من أجل الدُّخول إلى نهضة جديدة في سياقات تاريخية وفضاءات عالمية.

لنقل إذن ومن دون مواربة، بأن تجديد القيم هو المسلك الآمن للنهضة الجديدة، لأن تجديد القيم تعيد وصل الصلة الممزقة بين الفكر والنشاط العملي، أو بين الحقيقة النظرية والحقيقة الفعلية، وأمام هذا؛ فدور الدافع الإيماني في المنهجية الحضارية إمداد المجتمع من جديد بنسغ الحياة والرياح التي منحته الدُّفعة الأولى للحركة؛ فأينما توقّف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، إذ يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم، وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان كما جاء في عبارة «مالك بن نبي».

وإنه ليبدو أن هيمنة ثقافة الإنسان الاستهلاكي والإنسان الاقتصادي والإنسان الجنساني اليوم، وتحويل القيم الثقافية إلى سطوح دون معاني وأشكال خالية المحتوى نتيجة لمفاعيل

العولمة؛ يستوجب تجديد الطاقة الأخلاقية وتفعيل الاهتمام بمشروع " انتفاضة القلب " بتعبير «مالك بن نبي» من أجل التصدي لهذه الهيمنة من جهة ومن أجل الارتكاز على الدافع الإيماني لتأسيس النهضة المعنوية الجديدة في مقابل النهضة المادية التي أتى بها الغرب إلى العالم.

أولا: منطلقات البحث

1–التَّجديد الذي يقصده «مالك بن نبي » هو التّجديد الروّحي وليس التّجديد الفكري، ما أسميناه في هذه المقالة البحثية بتجديد القيم؛ الذي سيؤدّي إلى تغيير منظومة القيم الاجتماعية السائدة، باعتبارها خميرة الإصلاح وخميرة الحركة التاريخية وخميرة المحرّك الجوهري للتاريخ الإنساني، وليس الإصلاح الفكري الذي يسمّيه "بن نبي" الإصلاح الظّاهري.

2–توتُّر القيم الخلقية أو التوتّر الأخلاقي هو القوة الجوهرية في تكوين الحضارات. أو أنّه أعتى حقل من حقول النّهضة.

3–تجديد العاطفة الإيمانية أو إيقاظ الدّافع الدّاخلي أو رؤية القيم من جديد، تعيد الوظيفة الحيوية للأفكار والأشياء والأشخاص، وتنضبط هذه الدوائر الكبرى بالقيم الروحية.

4–الإيمان بمركزية تجديد القيم في مشاريع الإصلاح والتغيير الحضاري، ومركزية العلوم النّفسية والأخلاقية من أجل إعداد إنسان الحضارة .

ثانيا : مبرّرات البحث

إن الذي دفع بنا إلى مساءلة وإخراج هذه الفكرة إلى دائرة الاهتمام والنّقاش، جملة من المبررّات التي نوجزها في العناصر المتوالية:

1–أننا نريد أن نفكّر مع «مالك بن نبي»، وليس فقط معرفته، لأن أكثرنا يريد أن يعرف «مالك بن نبي»، لكن الأقلون فقط هم الذين يريدون التفكير معه، فأن تعرف المفكر أو الفيلسوف معناه الانسياق التحليلي مع أفكاره، والاكتفاء بالغوص في معانيها سعيا للتطابق مع مقتضيات دلالاته، أما التفكير معه فيعني أن تثور مفاهيمه التي ابتكرها وتعيد إخراجها وإلباسها معاني جديدة، من أجل اختبار قدرتها التأويلية والتّشريعية، على إيجاد مسالك ودروب جديدة للفكر والمعنى أو إيجاد حلول للمشكلات التي تنخر جسم الوعي العربي والإسلامي المتمزّق.

2–الحاجة من جديد، إلى إعادة إبداع مفاهيمه، وليس تقليدها أو التطابق معها، فنحن إما إننا نبدع المفاهيم ابتداء وإما أنّنا نعيد إبداعها حتى تبدو مراهنة لتحديات المجال التداولي المعاصر الراغب في إنتاج أسباب حركته والدّفع بالجهود الحضارية إلى السعي نحو دخول دورة حضارية جديدة.

3–الوفاء لتلك الروح النّضالية التي بذلت كل وسعها فرديا وجماعيا من أجل إدخال المجتمعات المتخلّفة إلى دورة حضارية جديدة، وبالتالي فإن أجمل ما أبدعه «مالك بن نبي» هو «مالك بن نبي» نفسه، وما آثاره الفكرية التي تركها إلا تجلّ لتلك الروح النضالية التي عاشت من أجل تفعيل الأفكار الأصيلة و استعادة القيمة لمجدها الضائع.

4–ضآلة تسليط التَّفكير على موضوعة القيم في فكر «مالك بن نبي»، فثمة عدم لفت الانتباه إلى هذه الزاوية من التَّفكير، رغم أن «مالك بن نبي»، قدّم نظرات ثاقبة في هذه المسألة، ونظرية مخصوصة في كيفية الخروج من ثقافة الهوان والارتكاس إلى ثقافة الإبداع والإنجاز والتفكير، وقدّم أيضا نقدا لنظام القيم الغربي الذي وصفه بالفوضى، فضلا عن أنه راهن على أن شروط الدّخول إلى دورة حضارية جديدة موقوف حصوله على تجديد قيم الإيمان وبثها في الشعور من جديد، من أجل أن يتحرّك المجتمع وطاقاته نحو الحضارة؛ بوصفها مستوى من الرقي الذّهني والسلوكي والعمراني.

5– أن مقومات الفن والعلم والعقل لا تكفي وحدها على إبقاء البناء الاجتماعي، " لأن الروح، والروح وحده، هو الذّي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدّم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطّت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوى بفعل جاذبية الأرض" [1]، ويصحح «مالك بن نبي» هنا، مفهوم الإيمان بالقيم واعتبارها قوة روحية دافعة، فالقيم الإيمانية لا يقصد بها قيم " الخلاص ألإنفرادي "، وإنّما من الوجهة الحضارية حيث يستحيل الإنسان والوقت والترات تتحرّك في أنساق حضارية وتعطي معنى للحياة وتوجه التاريخ نحو الغاية الإيمانية التَّوحيدية، أما الإيمان والإشعاع الذّاتي، فهو أمارة على تمزّق اجتماعي خطير وعرض على ترسُّخ الانحطاط.

6–أن ثمة بعدا تربويا مهما في توجيه الاهتمام إلى نظرية القيم عند «مالك بن نبي»، أي بؤرة التفكير الكبرى التي عليها مدار الرّهان والإنجاز، هذا البعد التّربوي يروم الخروج من دائرة الطبيعة إلى دائرة القيمة، أو من انجذابات الطّبيعة إلى ترقي القيمة.

ثالثا: تشخيص المرض: أفول رصيد القيم المعنوي

ثمة توافق على مستوى التَّحليل لأعراض المرض التي نشبت في جسم المجتمعات الإسلامية، من أن الأزمة ليست في حقيقتها تضييع الإنسان المسلم لإيمانه، أو شك في مبادئه الكبرى التي نَظَمَت العالم لأربعة عشر قرنا، أو تبنّي لرؤى فكرية وخطرات فلسفية منقولة عن فضاءات الثّقافات الأخرى المنحرفة التي ضلّت طريقها، مثلما نجد ذلك جليا في تجربة الحداثة الغربية، التي جعلت من الثورة على الأسس الدّينية الكبرى الناظمة لإدراك العالم والوجود

عنوانا لمشروعها التحديثي، أو أبصرت في تراثها الدّيني مجرّد مصطنعات توصف بكونها إرادة قوى تنجز فعلا (نيتشه) أو دواع لاواعية (فرويد) أو عقيدة إيديولوجية زائفة (ماركس)، وإنّما تضرب جذور العجز في انطفاء جذوة الفعالية والحركة الإيمانية في الحياة، وتخلّي الإنسان المسلم عن إدارة شؤون الحياة إدارة إسلامية، ولفتة «مالك بن نبي » في هذا المقام جليّة : " والمسلم حتى مسلم مابعد الموحدين، لم يتخلّ مطلقا عن عقيدته، فلقد ظلّ مؤمنا، وبعبارة أدق ظلّ مؤمنا متديّنا، ولكن عقيدته تجرّدت من فاعليتها، لأنّها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلّل من صلاته بوسطه الاجتماعي" [2]، وفي ضمن الوجهة نفسها نجد " علي عزّت بيجوفيتش" يقول : " إن الإخلاص للكتاب لم يتوقّف ولكنه فقد خصوصيته الفاعلة، لقد استبقى الناس في أفئدتهم من القرآن ما أشيع حوله من تصوف ولاعقلانية، فقد القرآن سلطانه كقانون ومنهج حياة واكتسب قداسته " كشيء" [3].

هذا التّشخيص يمكن لنا درك مظاهرة عند مالك في نبي، في طغيان العوالم الثلاثة الكبرى التي عليها مدار الإصلاح الحضاري: الأشياء والأشخاص والأفكار، واختلال التوازن بينها : ففي مستوى طغيان الأشياء تحتل الأشياء قمة سلّم القيم وتتحوّل الأحكام النّوعية خلسة إلى أحكام كمية فتظهر النّزعة إلى مُراكمة الأشياء... وفي طغيان الأشخاص تتجلّى في عدم القدرة على الفصل بين المبادئ والأشخاص الذين يمثّلونها ويجسّدونها، أو بمصطلحات «مالك بن نبي » : عدم القدرة على الفصل بين الفكرة المجرّدة والفكرة المجسدة... وطغيان الأفكار، حيث يصل الأمر ببعض المثقفين إلى الابتعاد عن المجتمع وانقطاع علاقة أفكاره بهذا المجتمع .... [4] في حين ان المهمة الجوهرية للمثقف هي مضاعفة الوعي في المجتمع.

لقد فقدت هذه الدّوائر وظيفتها الحيوية بسبب تضيع رصيد القيم المعنوي، و توقف جذوة الإشعاع الروحي الذي غيرت ما بالنّفوس، وموت الشواهد المُثلى التي كانت تعكس القيمة في الحياة، وتخلّي العلماء عن دورهم التّوجيهي للحياة العامة، وانحسار أدوارهم في المدارس وأمكنة العبادة، ففي مستوى المدارسات القرآنية " استسلمت الحكمة للمماحكات اللفظية، واستسلم الجوهر للشكل، وعظمة الفكر للمهارة والحفظ. وتحت التأثير المستمر للشكلية الدينية قلّت قراءة القرآن وكثر الاستماع إلى تلاوته بصوت غنائي. أما ما يحث عليه القرآن من –جهاد واستقامة وتضحية بالنّفس والمال، وهي أمور شاقة بغيضة إلى النّفوس الواهنة– كل ذلك قد ذاب وتلاشى في ضباب الصّوت الجميل لتلاوة القرآن وحفظه عن ظهر قلب. هذه الحالة الشاذّة قد أصبحت الآن مقبولة كنموذج سائد بين الشعوب المسلمة، لأنّها تتناسب مع أعداد متزايدة من المسلمين لا يستطيعون الانفصام عن القرآن ولكنّهم من ناحية أخرى لا يملكون القوة أو الإرادة على تنظيم حياتهم وفق منهج القرآن" [5].

وفي مستوى التّركيبة الاجتماعية تمزّقت شبكة العلاقات الاجتماعية التي كانت خميرة الإصلاح والنّهوض والتغيير، وتغيّر نظام القيم الاجتماعي وأفرز هذا النظام الغريب عن منابع القوة الأصلية–أفرز–عوائد أخرى تقطع مع اللحمة الاجتماعية التي صاغتها القوة الروحية الإيمانية، حيث طفحت إلى السطح قيم خلقية مذمومة، نبصر فيها أعراض على مرض اجتماعي أو خللا في شبكة علاقاته، تتجلّى في واقع التمزُّق بين أفراد المجتمع، وهذا ما يطالعنا به " «مالك بن نبي»" في تشخيصه لتحلُّل العلاقات الاجتماعية بوصفها علامات على المرض " فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذّوات بالتضخُّم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا، إذ يدور النّقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلّة وبراهين"[6].

وبالفعل؛ فالصّلات الاجتماعية بخاصة إذا كانت قوية في مستوى الوشاجة الإيمانية وفي مستوى الوفاء لقيم الرسالة تحقق الحركة وتخلق الإبداع الفكري ويتجدد العقل، ويتحرّك التاريخ، أي أن الجماعة الإيمانية ليست مجرّد تجمع استئناسي يقتضيه النوع، ولا مشاركة في تجارة دنيوية نافعة، وإنما هي شكل من أشكال العقد الإيماني والتعاهد على تحويل حقيقة وقيم الرسالة إلى شكل من أشكال النشاط الحي وتفعيل القيم التي ضمر حضورها في القلوب في الواقع، لأن الجهود الفردية مهما كانت حاصلة على أعلى مستويات الذّكاء وأعلى مستويات التعبدّ الفردي، إلا أن امتدادها محدودُ، والجهود الجماعية هي التي تثمر وترتبط بالحياة، أي أن عالم شبكة العلاّقات الاجتماعية هو " المصب الذي تلتقي فيه كل روافد الطّاقة الاجتماعية المتدفقة، فتزداد مع الزّمن تكاملا وانسجاما، ومن ثم تأصّلا وانشحاذاَ وحيوية وتجددا، لتعطي لجهد الأفراد والجماعات والمجتمع والأمة.. فعاليته الوظيفية أو التّسخيرية النّموذجية القصوى في معتركات التدافع والتداول الحضاري"[7].

نلخّص فنقول: إن التّشخيص الذي قدمه «مالك بن نبي» لأسباب الانحطاط ليس مرتبطا بالأساس الجوهري، أي الإيمان الإسلامي في تعاليمه وأركانه، إنّما مكمن العجز وأصل المرض هو فقدان الحماس المشتعل لمبادئ الإيمانية الإسلامية، والإهمال الكامل لها في الممارسة العملية، فكافة المظاهر : مثل الانفصال بين الفكر والعمل، والتخلي عن الواجب، والخلط بين جواهر الأشكال ومظاهرها، وشيوع الفساد والظلم والخراب الأخلاقي، والتشدد في في آداء التكاليف الدّينية، هي أعراض على مرض واحد هو : أفول الروح كمرحلة أولى واشتراط منطقي وجداني في مسيرة الحضارة، لأن " كل قوة في العالم تبدأ بثبات أخلاقي، وكل هزيمة تبدأ بانهيار أخلاقي، فكل ما يراد تحقيقه لا بد أن نبدأ بتحقيقه أولا في أنفس الناس"[8].

رابعا: نقد «مالك بن نبي» لمنزلة تجديد القيم الإيمانية في مشاريع الإصلاح أو نقد الإصلاح الظاهري

ثمة لفتة من «مالك بن نبي » إلى مشاريع الإصلاح التي راهنت على أولوية إدخال المجتمعات الإسلامية المتخلّفة إلى دورة حضارية جديدة، فقد أُعجب بن نبي بهذه الحركات واقترب منها ومن مرجعياتها الإصلاحية، وهذا دليل على كون مشروع «مالك بن نبي » مشروعا إصلاحيا، لكن هذا الاقتراب منها لا يعني مسايرتها في المرجعية وفي المنهج، وإنما اقتراب لإثبات اختلافه عنها ورصد مواطن الخلل في رؤيتها وبرنامجها الإصلاحي، ومن الانتقادات التي رصدها «مالك بن نبي» للحركات الإصلاحية (منها حركة جمال الدين الأفغاني وإرادة الإصلاح السياسي وجهود إمام النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس، وحركة الإخوان المسلمين وجهود الشيخ محمد عبده الرَّاغبة في تجديد علم الكلام) –من هذه الانتقادات– افتقارها للمنهج العلمي وتعيُّشِها على مفاهيم بائدة في فلسفة الإصلاح مرجعية ومنهجا، و َقلبُها لثنائية السياسي و الأخلاقي في مراحلها العملية.

ومن أقوى الانتقادات فضلا عن هذه، توجيه التفكير والتّشخيص نحو " المرحلة الفكرية " من مراحل الحضارة، وصياغتها بلغة علم الكلام، هذه المرحلة التي راهن عليها دعاة الإصلاح، ووحَّدوا بينها وبين التّجديد؛ في حين أنّ تحليلية «مالك بن نبي»، لا تساير هذا الرأي، لأن علم الكلام لا يؤدي إلى تغيير ما بالنّفس، ولا يعين النّفس على تجاوز وضعها المألوف، فهو يمجّد الجدال وتبادل الآراء، وأقصى مقاصده إفحام الخصوم، فضلا عن أن صلته بالوظيفة الاجتماعية للدّين مقطوعة، وما يواجهه المسلم من تحديات ليس من شأن علم الكلام، فهو في حاجة إلى تغيير الأوضاع النّفسية والاجتماعية حوله " وتغيير النّفس إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شان (علم الكلام) بل هو من شأن (التصوف)، أو بعبارة أدق، هو من شأن علم لم يوضع له (اسم) بعد، ويمكن أن نسميه (تجديد الصلة بالله)"[9].

إن هذا العلم الجديد هو ما نحتاج نحن اليوم إلى وضع أصوله، وتوسيع فضاءاته، لكن «مالك بن نبي» يستدرك على هذا العلم، من جهة تخليصه من المعاني التي قد تأتي إلى المتلقي في لحظة السماع الأولى، حيث يربط بينه وبين تصوُّف الدّروشة والمرابطين، لأن هذا الشكل من التصوف لا تتعدى دائرته تطهير النّفس من الخطايا، والبحث عن الخلاص الفردي، والحط من قيمة الحياة الواقعية، "على حين يهدف الإصلاح إلى توفير الدافع الدّاخلي لدى جماهير الشعب، تلك الجماهير المتعطّشة إلى (انتفاضة القلب) كيْما تنتصر على ما أصابها من خمود "[10].

وهذا هو ملمح الافتراق بين «مالك بن نبي » وبين مناهج الإصلاح المحايثة للحظته التاريخية، لأن الاتجاه الإصلاحي اتجه خاصة إلى الذكاء، أو بعبارة أخرى " أدى بالمشكلة إلى (المرحلة الفكرية) من الحضارة، فهو بذلك يتخطى مرحلة الفرد الجوهرية من مراحل التطور هي : المرحلة الرُّوحية التي تؤدي إلى تغيير الفرد، إلى جانب أنها تؤدي إلى أول تغيير يمكن أن تتعرّض له القيم الاجتماعية"[11].

جلي إذن، كيف يراهن «مالك بن نبي» على أولوية التَّعبئة الرُّوحية الفكرية لتغيير الجانب النّفسي للفرد المسلم، وهذا التغيير يؤدي إلى تغيير شبكة العلاقات الاجتماعية، هنا تتحدّد الطاقة الأخلاقية باعتبارها خميرة القوة ودافع الحركة ونسغ الحياة وأول مرحلة من مراحل الحضارة، أي أن " آلية الحركة التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى مجموع من العوامل النّفسية الذي يعد ناتجا عن بعض القوى الرُّوحية، وهذه القوى الرُّوحية هي التي تجعل من النّفس المحرّك الجوهري للتاريخ الإنساني"[12].

وتتواتر هذه التأكيدات على أهمية العامل الروحي تواترا قويا، في تحليلاته، حيث أن ثمة وحدة بينها وبين الفعَّالية والقوة والدّافعية؛ وبالفعل، فعندما نطالع المشاريع الفكرية الإصلاحية نجدها تُعطي أيضا قيمة للإصلاح الأخلاقي وأولوية التّنشئة الأخلاقية على غيرها من المجالات، " فالنّظرة الكونية الدّينية، المقترنة بالحساب في الآخرة وقدسية القيم الأخلاقية، هي التي تستطيع حفز الأفراد على القيام بالتضحية اللاّزمة. وهذا ما تحققه النّظرة الكونية الدّينية، عبر إعطاء خدمة المصلحة الخاصة منظورا بعيد المدى في هذه الدّنيا وفي الآخرة... إن التاريخ مفعم بالأمثلة عن الحالات التي وصل فيها مجتمع من المجتمعات إلى ذروته نتيجة الإصلاح الأخلاقي، والتقدّم الفكري والاقتصادي يتبع في العموم الإصلاح الأخلاقي، وقد أصاب كروبيير Krooeber حين قال : " لا يحضرني شعب واحد طوّر علما أو فلسفة أو فنّا راقيا، ثم كون نمطا دينيا، وقد أكّد شويتزر Schweitzer أنه " إذا لم يوجد الأساس الأخلاقي، فإن الحضارة تنهار، حتى عندما تكون أكثر القوى المبدعة والفكرية تقوم بدورها في اتجاهات أخرى" [13].

ودلالة هذا، أن القيام والحركة لا يمكن أن يحصلا، دون مقدّمات مرتبطة بالوعي والإرادة، أو انتفاضة القلب بتعبير «مالك بن نبي»، وهذه الخلاصة لازمة منطقية عن المقدمة الأولى، أي أن الخلل ليس في التصورات أو المبادئ الكبرى المؤسّسة للإيمان، وإنّما إفقاد هذا الإيمان روحه وفعاليته على مستوى العلاقات والسلوك، وبهذا، فإن " الصحوة الدّينية هي نوع من الالتزا م الأخلاقي والحماسة، حالة من القوة الروحية على المادة، حالة من المثالية الحية العملية يصبح فيها الأشخاص العاديون قادرون على أعمال بطولية تتسم بالشجاعة والتضحية، ومن ثم فالصّحوة الدّينية خاصية جديدة للإيمان والإرادة، تتلاشى فيها قيمة المعايير اليومية المألوفة

للممكن، ويرتفع فيها الفرد والجماعة معا إلى درجة أعلى من التّضحيات في سبيل تحقيق مثلهم الأعلى"[14].

لنقل إذن ومن دون موارية؛ أن الطاقة الأخلاقية أو انتفاضة القلب التي يكون مصدرها الفهم العملي للقرآن وليس الفهم النّظري له، هو أساس الحركة وجوهر إعادة الرّابطة بين شبكة العلاقات الاجتماعية التي تمزّقت بفعل التخلّي عن قوة الإيمان، والركون مرة أخرى إلى نداء الغرائز الذي يحجب قوة الرُّوح ويكبّل طاقتها الانفجارية، التي متى انسابت في نفس إنسان ودخلت شغاف قلبه، استحال إلى شخص آخر وإنسان جديد، تستيقظ فيه دوافع الإيمان وتخمد الغرائز أو يجرى توجيهها نحو قيم التعبّد والفعّالية والرّوحية.

خامسا : تجديد القيم أو علم تجديد الصّلة بالله : المحاور الكبرى و النّتائج الحضارية

يأتي سعينا التحليلي من أجل استخراج المحاور الكبرى لهذا العلم الجديد والمساهمة في وضع أصول له، مستكملين ما كان «مالك بن نبي» يروم تأسيسه، من أجل إعداد إنسان الحضارة من جديد، بعد أن فقد إشعاعه الإيماني وإرادته للحركة وهمته الرّوحية، فكانت النتائج في واقعنا اليوم : الإنشاد نحو الإسلام الشكلي أو الميكانيكي بتعبير البشير الإبراهيمي، وشيوع الكلام في القضايا الجزئية : إرضاع المرأة للرجل الأجنبي، الحجاب ومدى مشروعيته مثلا، الآراء الفقهية المفصولة عن النّوازل والمستجدّات والمهتمة بالإفتاء في الضأن والماعز . هذه المظاهر أعراض على مرض في المبدأ الأخلاقي وعدم ارتباط به وبقوته المحرّكة، من هنا، فإن المحاور المركزية الكبرى التي راهن عليها «مالك بن نبي» من أجل إنجاز هذا العلم الجديد هي تواليا :

1. من معرفة الله (سبحانه وتعالى) إلى الاتصال به (تبارك وتعالى) :

ضمن هذا الإطار الكلي، يوجه «مالك بن نبي» نقده إلى علم الكلام الذي يسعى إلى البرهنة على وجود الله، حاشدا العدة المنطقية الاستدلالية من أجل ذلك، في حين أن التحدي الأكبر ليس هو إثبات وجود الله، وإنّما إشعار الناس بوجوده، وإرجاع الفاعلية لهذه العقيدة الإيمانية وقوتها الإيجابية وامتدادها الاجتماعي، إن المطلوب هو ملء النفس الإنسانية المسلمة بالله سبحانه وتعالى بوصفه مصدر الطاقة، وفي هذا المقام يتبنّى «مالك بن نبي » موقف محمد إقبال تبنيا كليا، " حين نبّه على أن المطلوب ليس العلم بالله، ولكنه في أوسع وأدق معانيه (الاتصال بالله)؛ ليس المطلوب مفهوما كلاميا، ولكنه انكشاف للحقيقة الخالدة وبحسب تعبيره هو (تجلّي هذه الذّات العلوية)"[15].

وبهذا الإجراء النّقدي التجاوزي لمسلك الاتجاهات الإصلاحية؛ يرسي "بن نبي" الأسس الأولى لعلم كلام جديد، علم كلام لا يختزل الطاقة في المهارات المنطقية والجدالية، وإنّما يتجه إلى ملء النفوس المتعطّشة الحيرانة بالقيمة والمعنى، إنه علم عملي وليس نظري، والحقيقة في مواده ليست تطابقا نظريا، وإنما هي كتل من النّشاط الإيجابي المتحرّك ومن القيم الإسلامية العيانية، وهذا ما قاله محمد إقبال في كتابه : تجديد التفكير الديني في الإسلام بخصوص فهم التوحيد والإيمان الإسلامي " وهكذا وجدت الثقافة الإسلامية الجديدة أساسا لوحدة العالم في مبدأ التوحيد، والإسلام كدستور إنما هو الوسيلة العملية لجعل هذا المبدأ عاملا حيا في حياة البشر العقلية والوجدانية... ولما كان الله هو المنبع الروحي المطلق لكل حياة فإن الولاء لله والإخلاص له يساوي بالفعل ولاء الإنسان لطبيعته الخاصة المثالية"[16].

إن مشكلة الاتجاهات الإصلاحية رغم أن بداياتها كانت تحتوي على النّفثة الرّوحية والانتفاضة التصوفية، إلاّ أنّ تعاليمها لم تكن تهدف إلى تكوين مخلصين، وإنما إلى تكوين بارعين في فنون الجدل والمماحكات النّضالية، نمت هذه الاتجاهات الإصلاحية من حيث عدد المنتسبين لها، ولم تنمو من حيث عدد المخلصين الباذلين والزاهدين في قيم الحياة المادية المنفصلة عن القيمة من أجل المبدأ الأعلى، ذلك أن الإخلاص " يتكفّل بتجريد نية المسلم وقصده، من كل ما يؤثر في صفاء علاقته بالله عز وجل، ويصرف بعض مشاعره وإمكاناته خارج دائرة مرضاة الله تعالى في كل علائقه الوظيفية الذّاتية والجماعية... هو لب العبادة ومخها، وأساس القوة، وأصل النجاح، بدونه يفقد الجهد الإنساني مُبرّراته النّفسية العميقة، وتذبل دوافع خيرته، وينزلق نجو دوامات الفعالية الاهتلاكية الهدمية، ويعرض منجزاته للاضمحلال"[17].

إن «مالك بن نبي » هنا، يقترب من الاتجاهات الفلسفية المعاصرة، أو بالأقوى اتجاه فلسفة الدين في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، عندما يجري التأكيد على أولوية التجدُّد النّفسي باعتباره جوهر النّهضة، وعلى التّوحيد باعتباره صلة بالله أكثر من كونه برهنة على وجوده، ذلك أن فلسفة الدين المعاصرة في الفكر العربي الإسلامي المعاصر " لا تقصد الدّفاع عن العقيدة ضد خصم معيّن، وإنّما تجديد الفهم لمكوناتها ومقتضياتها في سياق المستجدات الفكرية، ولا تشتغل بالمسائل النّظرية المجرّدة، وإنّما بالمسائل العملية المشخّصة، وبفضل استبدال فلسفة الدين تقرير العقيدة مكان تفهيمها على المقتضى الحديث واستبدالها الاشتغال بالمسائل العملية مكان الاشتغال بالمسائل المجرّدة، تكون عبارة عن حركة اليقظة الفكرية التي يشهدها العالم الإسلامي في عصرنا هذا"[18] .

والموقف نفسه، نعثر عليه لدى "إسماعيل راجي الفاروقي" في كتابه : "التوحيد مضامينه على الفكر والحياة"، فهو قد ناهض هيمنة المفهوم الكلامي للتوحيد، الذي صور الله

باعتباره مبدأ الخلق وعلّته، أو المحرك الأول وحشد كافة الأدلة الأنطولوجية والغائية على وجوده، إن " الفاروقي" في بحثه عن جوهر التوحيد، يُدخل إلى معجم العقيدة الإسلامية مضامين غير معهودة، فهو "لب المعيارية في الكون . وهذا هو البعد من مفهوم الإله الذ ي تعرض لقدر كبير من البخس فـي النظرية التي طرحها الفلاسفة التي صورته على أنه إله خلق وانتهى من مهمة الخلق، ويعنى تضمين المعيارية ف ي مفهوم الإله، أنه سبحانه صاحب الأمر والنهى والمدبر لكل ما فـي الوجود، وعنايته بالكون وبكل ما يصدر فيه من حركات وسكنات وأفعال حقائق لا يرقى إليها الشك، وأن إتباع الإنسان لمشيئته ولإرادته قدر استطاعته، هو أساس قيمة الفعل الإنسانى . وتلك الإرادة الإلهية هي التي تحدد للإنسان ما ينبغي أن يكون عليه كل ما في الوجود، حتى في الحالات التي لا يترتب على إنجازها بالفعل، واجبا تكليفيا نابعا منها عليه. ومع أن تلك الذات الإلهية مطلقة وغيبية، فإنها ليست معزولة عما هو قيم ي، ولا قابلة للتأكيد عليها على حسابه. ولو قدر للمسلم أن يستخدم هنا مقولة "قيمة المعرفة" وجدنا لسان حاله يقول أن قيمة الغيبـي الماوراءي هو أنه يقوم بدوره الفاعل بوصفه مصدر : الأمر التكويني أو مولّد الدافعية، أو المعيارية"[19].

وبهذا الإجراء التّجديدي الذي رامه «مالك بن نبي »، يكون دور الاتجاهات الإصلاحية هو تعبئة القيمة الإيمانية وتفعيلها في الحياة، وإلا أضحت إصلاحا ظاهريا يَقْلِبُ الأولويات في مراحل الحضارة وخطواتها، فالحاجة إذن ليست إلى الإصلاح الفكري ما لم يسبقه إصلاح روحي أو نهضة إيمانية، ينتفض القلب فيها على القيم السائدة، من أجل تغيير الفرد وتوشيج العلاقات الاجتماعية باعتبارها أساس الحركة في الفكر والحياة، وأساس إعادة الوحدة الممزقة بين الفكر والحياة أيضا.

2. مركزية العلوم الأخلاقية والنّفسية في الكشف عن " علم تجديد الصّلة بالله" :

يدرك «مالك بن نبي» في تحليلاته لمشكلات الحضارة، مركزية الدّين في ذلك، فالدّين هو نواة تكوين الحضارات، وهو القوة التي تتجدّد تبعا لها النّفوس التي ألفت عوائد الانحطاط وأضحت طبيعة ثانية لها، وإذا كان «مالك بن نبي » قد استخرج هذه الفكرة من مساءلاته الاستقرائية لنشأة الحضارات بخاصة الحضارة الإسلامية والغرب المسيحي المعاصر، فإن نتائج الدّرس الإناسي الرّاهنة تطالعنا أيضا بمركزية الدّين كروية إلى العالم أو كمصدر لنظام القيم، " ذلك أن الدّين، بحسب أي الأشكال التي يرتديها، يقدّم تفسيرا للإنسان وللعالم، وأيضا للإنسان داخل العالم. فهو يمكّنه من ممارسة أفعال مختلفة، ومن ربط اللُّحمة الاجتماعية، ومن تدعيم كل ما يحكم الوجود الجماعي... وكظاهرة إنسانية يظهر الدّين كإجابة للإنسان عن متطلّبات ظرفه الخاص حيث يدفعه لتأمين انسجام كيانه مع حقيقة أكبر وأكثر بقاء من ذاته"[20]؟

فالدّين بعناصره الكبرى:الاعتقادات الشاملة والقيم الروحية والقواعد المُوجّهة و النموذج النّبوي الحي، بخاصة على النحو الذي يصوغه الإسلام، متى دخلت وعي الإنسان وامتزجت تعاليمه بروحه، تغيّرت العوائد السَّائدة من جديد، وتحرك الإنسان وقلبه مفعم بالغاية الجديدة بعد أن أغلق على ذاته في حدود طبيعته أو غريزته، وتحرّكت تلازما مع هذا عجلة الحضارة مثمرة رؤية جديدة إلى العالم ونظاما قيميا جديدا نحو مقاصد جديدة أيضا.

من هنا فإن الدّين قوة حيوية لصيقة بالإنسان، وأيُّ مشروع حضاري لا يراعي هذه القوة فهو لا ينسجم مع طبيعة وحقيقة الحاجات الإنسانية، والتّفسير المادي حسب «مالك بن نبي » عاجز عن تفسير جميع التغيرُّات الكُبرى في التاريخ الإنساني، لأنه ليس بالمادة وحدها يحيا الإنسان ويتحرّك، " فالمادية تفشل في تفسير إصرار الإنسان على أن يجد معنى في الكون ومركزا له، وحينما لا يجد معنى له، فإنه لا يستمر في الإنتاج المادي مثل الحيوان الأعجم، وإنّما يتفسخ ويصبح عدَميا... وقضية المعنى تزداد حدة مع تزايد إشباع الجانب المادي في الإنسان، فكأن إنسانية الإنسان لصيقة بشيء آخر غير مادي. والبحث عن المعنى قد عبّر عن نفسه على هيئة فنون وعقائد "[21]، و" «مالك بن نبي »"، أدرك هذا البعد الجوهري في الإنسان، ذلك أن الإطار الاجتماعي لا يتحرّك فقط، حسب الحاجات المادية وإنما يتحرّك أيضا طبقا لوجوده النّفسي أو حاجاته الروحية .

إن مقصدنا من خلال هذا الــتأكيد على وحدة الحياة الإنسانية والدين وعلى وحدة الحركة الاجتماعية والدّين، –مقصدنا– هو وصل الحركة الاجتماعية بالإصلاح الدّيني؛ و الكسب المنهجي الثقيل الذي جاء به «مالك بن نبي» هنا: أن الإصلاح الديني مدخل أي تغيير اجتماعي والنقطة الضّرورية في كل انطلاق، وما الإصلاح الديني الذي جرى ترويجه وإسكانه في تجربة الغرب الحداثية، إلا تصنيف مقصود تلازم مع هذه التجربة، "فالإصلاح الدّيني ضروري باعتباره نقطة في كل تغيير اجتماعي"[22] .

هذا وإن " «مالك بن نبي »" نبّهنا إلى أهمية استخدام المعجم النّفسي والاجتماعي والتّربوي، من أجل فهم كيف تؤثر القوة الدّينية على النفس الإنسانية. ومن التطبيقات المنهجية التي يوردها "«مالك بن نبي »"، تشغيله لقانون الكبت عند فرويد، هذا القانون يخرجه " بن نبي" من مضائقه الغرائزية الطّبيعية، ويصله بآلية إسكات صوت الغرائز وإيقاظ قانون الروح،" وهذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدّينية: فالحيوية الحيوانية التي تمثّلها الغرائز بصورة محسوسة لم تُلغَ ولكنّها انضبطت بقواعد نظام معيّن، وفي هذه الحالة يتحرَّرُ الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في

جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروّحية التي طبعتها الفكرة الدّينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح"[23].

إن هذا الإقرار ملمح جوهري إلى مدى الحاجة إلى التّنبيه على محورية تغيير النّفس وتغيير المجتمع والاحتفاظ بنظام القيم الإيماني. فالعلوم النّفسية والأخلاقية تتولّى مهمة البحث في الحاجات الحقيقية للنّفس الإنسانية، من أجل إقدارها على تجاوز وضعها المألوف، وأيضا من أجل الإبانة عن الأبعاد الروحية للإيمان أو الدين مثل " الإيمان وتأثيره النّفسي الإيجابي في تكامل الشخصية، الإيمان بالله كغريزة نفسية، علاقة الإنسان بالله، مراحل تطور الوعي الديني في الأعمار المختلفة، العبادة وتأثيراتها السلوكية والاجتماعية والعاطفية، الإلحاد والخسارة الروحية، دراسة الحالة أما الأبعاد الخلقية فتتجلى في : الميول الأخلاقية المنوعة وأهميتها في تكوين المشاعر والعادات، تأثير المعتقدات القائمة على الإيمان بالله والكمال الخلقي، عوامل التطور الخلقي وعوامل السيطرة والرشد، الأخلاقيات المادية، والنفعية، الأنانية، دراسة الحالات ومعالجتها"[24].

وهذه هي المهمّة التي تتولّاها العلوم النفسية والأخلاقية ضمن هذا العلم الجديد، وتطبيقات «مالك بن نبي» في إظهاره لدور المثل الأعلى الديني جليّة، إذ أنّه يقوم المثل الديني الأعلى من وجهة نظر علم النّفس بالتدخُّل " في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة تحت تصرف (أنا) الفرد، ثن في توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه (الأنا) داخل المجتمع، تبعا للنَّشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ" [25].

وهذه التَّطبيقات إيحاءات بضرورة توظيف هذه المعرفة الإنسانية توظيفا يعين على بث الحيوية في الإنسان، لتأتي التربية فيما بعد، لكي تستكمل المسار في المحافظة على هذه القيم المعنوية الإيمانية وعلى ترسيخها في الوعي، هذه التّربية وظيفتها حضارية بشكل مخصوص، إذ أنّها تحافظ على منظومة القيم الإيمانية وتعمل على ترسيخها وتعميقها، حتى تستحيل سلوكا عيانيا، وقيمة اجتماعية، وسلوكا حضاريا، وهذا ما عمل «مالك بن نبي » على إرسائه، فهو " يؤكّد على أن ثمة ارتباط قائم بين التّربية كأداة، ومنظومة القيم الثقافية كمحتوى تربوي، والحضارة كمنتوج تربوي، بحكم أننا نتعامل مع مشكلة الثقافة باعتبارها منهجا تربويا ينتظر التطبيق ويستهدف تجسيد معاني التحضُّر في إطار تربوي قائم على فلسفة أخلاقية محددة باعتبار هذه الفلسفة ذاتها هي البعد الأساسي الذي يحدد المعالم المميّزة لهذه العملية التي تستهدف تأهيل الفرد للفعل التاريخي المجسّد لمعنى التحضُّر في الحياة الاجتماعية " [26].

جلي إذن كيف يجري الوصل بين هذه العلوم التي أعطى لها «مالك بن نبي » رغم تخصصه التقني الأولوية القصوى في مشروع علم تجديد الصلة بالله، لأنها العلوم الأقرب إلى النفس الإنسانية، وهو يريد تجريدها من إحالاتها الفلسفية الوضعية المادية ويسكنها في أرض إنسانية الإنسان، من أجل أن تنتج و تُثْمر، إن علم الإناسة في نسخه المعاصرة يطالعنا بكون المقدس هو مصدر كل فعالية، والدين هو الممد للنفس الإنسانية بالقوة والإغراءات التي تجعله يلتحم بالمبدأ الأعلى ويكيّف نفسيته بما يقتضيه هذا المبدأ، لكن هذه العلوم تكون موصولة دائما بالقيمة العملية والاجتماعية للفكرة، وتبعا لهذا ؛ فإن مستلزمات التّحليل لأركان "علم تجديد الصّلة باللّه "، توجب استخراج مبدأ آخر، تواتر بصورة جلية في تحليلات «مالك بن نبي » جميعها، هذا المبدأ هو مبدأ : الفكر المستعمل أو قيمة العمل.

3-الفكر المُسْتَعْمَل كغاية لعلم تجديد الصّلة باللّه :

إن القيمة الجوهرية للفكر لا تستمد من إطاراته النّظرية، وإنّما من قيمته العملية أيضا، ذلك أن الفكرة التي لا تلد عملا هي فكرة ميّتة، وقد قلنا في مطلع الكلام أن تمزق العلاقة بين الفكر والعمل هي أحد الأعراض الخطيرة على الانحطاط، لأن جوهر أيَّ تغيير لا يستهدف ثورة في الرؤوس فقط، وإنّما في السلوك العملي أيضا، وقد حذّر «مالك بن نبي » من هذا الاكتفاء بالصحة النّظرية للفكرة، إذ " لا يكفي أن نعلن عن قدسية القيم الإسلامية، بل علينا أن نزودها بما يجعلها قادرة على مواجهة روح العصر، وليس المقصود أن نقدّم تنازلات إلى الدّنيوي على حساب المقدّس، ولكن أن نحرّر هذا الأخير من بعض الغرور الاكتفائي والذي قد يقضي عليه"[27].

واستعمال العلم هو أحد مقاصد " علم تجديد الصّلة باللّه "، فالفلسفة الخلقية باعتبارها قوانين روحية لتوجيه السلوك، الغاية منها هي توجيه السلوك وإرشاد أشخاص المجتمع إلى القيم، فليس عند «مالك بن نبي» علم دون عمل، ولا قوة نظرية من دون قوة عملية " بل هناك حياة متكاملة قوامها معرفة الذّات، والإحساس بالقيم، والمشاركة في ملء الحياة، والمساهمة في بناء شخصية الغير، ومن هنا فإن الفلسفة الخلقية لا يمكن أن تكون مجرّد نظر عقلي يستهدف تعريف الفضيلة أو تحديد ماهية الخير، بل هي لا بد من أن تتخذ " طابع الفلسفة العملية"، التي تأخذ على عاتقها مهمة العمل على إيقاظ الحساسية بالقيم لدى الناس، والمشاركة في تربية الإنسانية بوجه عام" [28].

والأخذ بالقيم إلى القيمة العملية ضروري " ذلك أن المراد الإلهي من إنزال علمه ليس أن نقف على قيمته النّظرية ومبانيه الاستدلالية، وإنّما نتلقاه باستعدادنا وقدراتنا العملية، فنتحقق به في سلوكنا، على اعتبار أنه هو وحده العلم الذي تصلح به أحوالنا وتسعد به حياتنا؛ وعلى هذا، فإن

العمل لا يشكل هدفا للعلم المنزل فحسب، بل إنه يشكل روحه الخالصة، بحيث تصبح العلاقة بين العلمين –الإلهي والبشري– علاقة عمل رباني ونظر إنساني قد يليه التطبيق أو لا يليه" [29].

ويُعدُّ هذا الإقرار بقيمة العمل، وتوحيد الصّلة بينه وبين العلم، وَصْلُ قوي بين حركة المجتمع وبين البعد العملي، إذ في استعمال العلم تتحرك الإرادة والمجتمع، وما ضروب اللاّفعالية التي تطبع سلوك الإنسان المسلم المعاصر، إلاّ ملمح جوهري على تمزّق تلك الوحدة بين العلم والعمل، فمسلم اليوم شبيه بالميتافيزيقيي ن الذين يعتبرون الحقيقة هي التَّطابق بين الشيء وتصورّنا عنه، أو هي فعل منطقي معرفي خالص، كلا؟ الحقيقة عند مالك بن نبي أفعال وجهود حيوية ترى بمنطق عملي وبأداء نظامي متميّز، " وهذا الارتقاء بالسلوك الإنساني الفردي هو الهدف المحوري لحركة البناء الحضاري، كما أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وهي من الجهة المنهجية غاية الارتقاء المعرفي والروحي، فهما مطلوبان طلب الوسائل، بينما الارتقاء السلوكي أو الأخلاقي مطلوب لذاته " [30].

لقد تشكّلت اتجاهات قيمية في الفلسفة الأخلاقية المعاصرة، يجمعها هم البحث عن السُّبل المنهجية التي تمكّن من إعادة الوحدة الممزّقة بين الفكر والعمل، ومن الاجتهادات المعاصرة إسهام الفيلسوف المعاصر " طه عبد الرحمن " في كتابه" سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم (2012)"، وهو برأينا انخراط جلي في مشروع " علم تجديد الصّلة باللّه"، وذلك بوضعه لضوابط ترتب الصّلة المنهجية بين العلم والعمل " أحدها " مبدأ تقديم اعتبار العمل"، ويقضي بأن كل مسألة لا يترتب عليها عمل لا فائدة منها ولاحاجة للبحث فيها... والثاني "مبدأ العلم المستعمل"، ويقضي بأن لا يتعلّم المرء من العلم إلا ما يعمل به، ولا يندفع في الاستزادة منه، حتى يعمل بما حصّل منه، بل عليه أن يقتصر منه على القدر الذي يعرف به العمل، والثالث "مبدأ العلم النافع"، ويقضي بأن لا يتعاطى المرء العلم إلا العلم الذي إذا عمل به، لا تقتصر ثماره على عاجله، بل تتعدّاه إلى آجله، ولا تقتصر على ذاته، وإنّما تتعداها إلى غيره" [31].

واللاّفت للنظر هنا، القيمة الفكرية للعمل، فالعمل يثُمر فتح الدُّروب العلمية الجديدة، ويجدد الصلة بالله، فضلا عن أنه يقي السلوك والعلم في آفات القصور عن الفائدة والغلو في التجريدــ وبهذا الالتفاف على التجلي العياني للقيم، ندرك مدى القيمة الكبرى لهذا المشروع الذي لم يظهر بأصوله وتفريعاته عند «مالك بن نبي »، ويمكن أن نرصف فكرة القيام بالواجب كعلامة على وحدة الفكروالعمل، فالواجب عند «مالك بن نبي » يكتسب صفة القداسة، ويربطه ببذل الجهد وتحمل الكُلْفة واقتحام العقبة " إذ ليس من الميسر في أساس اقتحام العقبة سوى إرادة الإنسان من هنا... فحين نختار جانب الواجبات تتحدد تلقائيا ثقافة جدية" وما المطالبة بالحقوق إلا علامة على الانحدار والذبول نحو نداء الطبيعة والغريزة.

خاتمة: آفاق مشروع " علم تجديد الصّلة بالله":

هكذ، إذن نرصد احد المشاريع الفاعلة في الفكر الإسلامي المعاصر، مشروع " علم تجديد الصلة بالله"، الذي ترك مالك بن نبي بافتتاحه له، ترك الوصية لإكمال مسيرته البحثية، ولتطوير هذا المشروع وتحويله إلى علم جديد، وهذا المشروع برأينا؛ نوع من العودة إلى الدّلالة الأصلية للفقه، بعد أن سلبه سلطان " الفقهوت" ، القيمة المعنوية والبعد المعياري، وحصره في الذّهنية الفقهية القانونية الشكلية. إن المفهوم الأصلي للفقه هو : "علم معاملة العبد لربه "، لكن جديد بن نبي أن هذه المعاملة يريد أن يأخذ بها من العلاقة بين الإنسان والله إلى الله والمجتمع، وذلك ببث الحيوية الأخلاقية في نسيجه كيما يقوى على القيام والنهوض مجددا، بعد أن عاد مُرتكساَ ومنجذبا نحو نداء الغرائز الفردي والجذني، وعطّل وظيفته التاريخية.

إن تأسيس هذا العلم، في حقيقته، لفت لانتباه المسلم إلى المرحلة الأولى من مراحل الحضارة، التي أرّخ لنسيان توثبها الإيماني الأول، الانفصال بين القيم والحياة الاجتماعية، ولفت أيضا؛ أن الأسباب المادية وحدها ليست مفتاحا للخروج من نفق التخلّف والانحطاط المُظلمين، فالأسباب الرُّوحية أقوي وأكثر فاعلية وامتدادا في نسيج المجتمع، وما مساعي الاتجاهات الإصلاحية التي راهنت على التّجديد الفكري، إلا أمارة على عدم تمييزها بين دفعة الحضارة وبين تمظهراتها العقلية، فاتهم أن ينبهوا في برامجهم الإصلاحية، إلى مركزية تجديد القيم الإيمانية، وأن ينصرفوا عن التجديد الفكري، لأنه المرحلة الثانية في الحضارة، وبتأكيد " مالك بن نبي" على مركزية القيم في الإصلاح، وعلى القيمة العملية للفكرة وعلى أهمية العلوم الأخلاقية والنّفسية، يكون قد فتح الأفق لإتقان خطاب إصلاحي جديد، يتحرّك على المستوى النفسي للإنسان المسلم من أجل تغييره، وإمداده بالطاقة الأخلاقية التي متى أقامت في روح إنسان، تحول إلى إنسان جديد، إنسان الدافعية الإيمانية وإنسان انتفاضة القلب وإنسان الواجب من المثل الديني الأعلى.

الهوامش:

1 «مالك بن نبي»، **وجه العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين، سوريا : دار الفكر 2006، ص 31 .

2 المرجع نفسه، ص 45.

3 علي عزّت بيجوفيتش، **الإعلان الإسلامي**، ترجمة، محمد يوسف عدس، مصر : دار الشروق، 1999، ص 57.

4 محمد شاويش، **«مالك بن نبي» والوضع الرّاهن**، سوريا : دار الفكر 2007، ص 98–100.

5 علي عزّت بيجوفيتش، **الإعلان الإسلامي**، مرجع سابق، ص 57.

6 «مالك بن نبي»، **ميلاد مجتمع ج1 (شبكة العلاقات الاجتماعية)**، ترجمة عبد الصبور شاهين، سوريا: دار الفكر، 2006، ص 43.

7 الطيّب برغوث، **محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند «مالك بن نبي»**، الجزائر: دار الشاطبية للنّشر والتّوزيع، 2012، ص 92. [1]

8 بيجوفيتش، **الإعلان الإسلامي**، مرجع سابق، ص 85.

9 «مالك بن نبي»، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص 54.

10 المرجع نفسه.

11 المرجع نفسه، ص 155.

12 «مالك بن نبي»، **ميلاد مجتمع**، مرجع سابق، ص 26.

13 محمد عمر شابرا، **الحضارة الإسلامية: أسباب الانحطاط والحاجة إلى الإصلاح**، ترجمة، محمد زهير السمهوري، فرجينيا ؤ–م–أ، : المعهد العالمي للفكر الاسلامي،2012، ص 114–215.

14 علي عزت بيجوفيتش، **الإعلان الإسلامي**، مرجع سابق، ص 86.

15 «مالك بن نبي»، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص 155.

16 محمد إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ترجمة محمد يوسف عدس، بيروت، القاهرة: دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، 2012، ص 246.

17 الطيّب برغوث، **محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند «مالك بن نبي»**، مرجع سابق، ص 107–108.

18 طه عبد الرحمن، **سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية)**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي2000، ص 224,

19 إسماعيل راجي الفاروقي، **التوحيد، مضامينه على الفكر والحياة**، ترجمة السيّد عمر، **(مخطوط)**، ص 35.

20 ميشال ميسلان، **علم الأديان (مساهمة في التأسيس)**، ترجمة عز الدين عناية، المغرب، أبوظبي : المركز الثقافي العربي، كلمة، 2009، ص 314.

21 عبد الوهاب المسيري، **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**، سوريا: دار الفكر، 2006، ص 57.

22 «مالك بن نبي»، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص 155.

23 «مالك بن نبي»، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، سوريا: دار الفكر، ص 67.

24 إسماعيل الفاروقي وآخرون، **العلوم الطبيعية والاجتماعية (من وجهة نظر إسلامية)**، ترجمة : عبد الحميد الخريبي، السعودية: منشورات عكاظ وجامعة الملك عبد العزيز،1984، ص 94.

25 «مالك بن نبي»، **ميلاد مجتمع**، مرجع سابق، ص 74.

26 عمر النّقيب، **مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر «مالك بن نبي» (نحو نظرية تربوية جديدة للعالم الإسلامي المعاصر)**، الجزائر: الشركة الجزائرية اللبنانية، 2009، ص 45.

27 «مالك بن نبي»، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، سوريا، لبنان : دار الفكر، 2006، ص 112.

28 زكريا إبراهيم، **المشكلة الخلقية**، تونس مصر : مكتبة مصر، دار سحنون، ص 58.

29 طه عبد الرحمن، **سؤال العمل (بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم)**، بيروت، المغرب: المركز الثقافي العربي،2012، ص 228.

30 الطيب برغوث، **محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند «مالك بن نبي»**، مرجع سابق، ص 110.

31 طه عبد الرحمن، **سؤال العمل (بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم)**، مرجع سابق، ص 14.